

الفصل الثاني

قيام حركة المرابطين

يظهر البحث في تاريخ الاسلام أن قضايا هذا التاريخ قد تفاعلت وتشابكت على الرغم من سعة الرقعة الجغرافية والمسافات الطويلة بين المناطق والبلدان ، وعلى هذا إن الواقعة التي حدثت مثلاً في المغرب قد نجد أسبابها المباشرة في بلد إسلامي وغير المباشرة في بلد إسلامي آخر ، ونضرب هنا مثلاً بتاريخ الدولة الفاطمية ، حيث أن هذا التاريخ مرتبط في مرحلة مبكرة بتاريخ التشيع حتى منتصف القرن الثاني للهجرة ، ثم بحوادث بلاد الديلم والعراق ، فالشام فاليمن فمصر إفريقية فسجل ماسية فمصر والشام من جديد ، لذلك من العبث البحث في أي قضية تاريخية إسلامية دون أخذ هذا الأمر بالحسبان .

وتنطبق هذه القاعدة على حوادث قيام حركة المرابطين في قلب الصحراء الأفريقية الكبرى ثم تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى وإثر هذا تدخلهم في شؤون الأندلس ، فالبحث في تاريخ المرابطين ترتبط بداياته بحوادث الاستفاقة الإسلامية السننية أولاً في المشرق الإسلامي ثم انتقالها إلى بلدان المغرب العربي خلال القرن الخامس ، وذلك مثلما ترتبط بواقع الحياة القبلية اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في الصحراء الكبرى وفي البلدان المجاورة في المغرب الأقصى وأفريقية ، والمثير للانتباه أن الاستفاقة السننية للقرن الخامس توافقت في المشرق مع هجرة البناة التركمان من بلاد ماوراء النهر وتأسيس السلطنة السلجوقية في المشرق ، وكان أيضاً من جملة نتائجها في المغرب هجرة قبائل الصحراء نحو المغرب الأقصى والأندلس وتأسيس دولة المرابطين ، وتعلق هذا كله بتعميق التبدلات الكبرى على صعيد العلاقات مع أوربة بشطريها الشرقي والغربي ،

ففي الشطر الشرقي كانت - كما رأينا - معركة منازكرد التي عدت فيما بين أسباب قيام الحروب الصليبية ، وفي الغرب معركة الزلاقة وازالة دول الطوائف من الأندلس وتوحيد هذه البلاد تحت راية المرابطين والاستعداد ليس فقط لاسترداد ما فقده المسلمون من بلدان الأندلس بل لاستئناف حركة الفتوحات داخل أوربة من جديد مما كان له أبعد الآثار في قيام الحروب الصليبية أيضا ، فهذا كله قد هيا الأجواء الأوربية حتى جاءت ساعة الانفجار .

في الحقيقة ما تزال مسألة قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم من الأحداث التي تحتاج الى المزيد من الأبحاث المعمقة ، ذلك انه على الرغم من الدور التاريخي المشرق الذي شغله المرابطون في الغرب الاسلامي ، وبرغم كثرة عدد المؤرخين الذين دونوا اخبار احداث هذا الدور ، فإن ما الت إليه نهاية المرابطين المساوية بقيام دولة الموحدين ، قد أدى إلى طمس آثار المرابطين واخبارهم طمسا كاد أن يكون كاملا .

ومع هذا لايفقد الباحث الأمل ، فبين يوم واخر يكتشف اثر مرابطي مباشر ، أو غير مباشر ينقل عن أحد الآثار المحجوبة عنا ، وبذلك تتضح الصورة أكثر فأكثر ، وعلى كل حال حين تتحدث المصادر عن قيام حركة المرابطين نراها تجمع على أن الحركة كانت دينية اسلامية تولي قيادتها بالأساس داعية اسلامي بعث من المغرب الى قلب الصحراء ، هو عبد الله بن ياسين ، بيد أن ابن ياسين توجه الى الصحراء مرسلأ أولا من قبل عالم اسمه أبو عمران النفاسي ثم ثانيه من قبل عالم آخر اسمه واجاج بن زلو ، وتحت اشراف ابن زلو وتوجيهه عمل ابن ياسين حتى لاقى النجاح .

وابن زلو لم يبادر الى ارسال ابن ياسين من عنده بل جاء هذا أيضا بناء على توجيهات من شيخه أبو عمران الغفجومي الشهير بالفاسي ، وعلى هذا بين أيدينا في البداية شخصيات دينية ثلاثه يتوجب علينا التعرف إليها واحدا تلو الآخر .

وكان من أقدم من ترجم لأبي عمران الفاسي القاضي عياض في مداركه ، وتتميز هذه الترجمة مع قدمها بكونها وافية من كثير من الجوانب وعظيمة الفائدة فهو : موسى بن عيسى بن أبي حاج --- الغفجومي « وغفجوم فخذ من زناتيه » وفي رواية أخرى « من هواره --- أصله من فاس وبيته بها مشهور ، ويعرفون ببني أبي حاج ، ولهم عقب وفيهم نباهة إلى الآن ، واستوطن القيروان ، وحصلت له بها رئاسة العلم » (١) *

وفي مقابل هذه الرواية نجد نصا على درجة عالية من الأهمية عند صاحب « بيوتان فاس الكبرى » المنسوبة لبعض مواده إلى اسماعيل ابن الأحمر حيث جاء : « ومنهم - أهل فاس - بيت أبي الحاج القرشي ، بيتهم بيت حسب وثروة وفقه وعلم وعدالة ، ولهم زقاق بفاس يقال له درب أبي حاج ، منهم الفقيه الامام العلامة المدرس المفتي الخطيب الصالح ولي الله تعالى أبو عمران موسى بن أبي حاج القرشي ، المعروف بأبي عمران الفاسي ، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهلها العاملين عليها لمغراوة ، فاستقر بالقيروان إلى أن توفي سنة ثلاثين وأربعمائة ، وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن ابراهيم اللامتوني الصنهاجي إلى قتال الطغاة من أهل المغرب وجهاد أهل برغواطة من السوس » (٢) *

ولئن اتفق القاضي عياض مع صاحب بيوتات فاس حول مكانة أسرة أبي عمران الفاسي ، فالخلاف بينهما حول نسبه ، فهو غفجومي عند القاضي عياض وقرشي عند صاحب بيوتات فاس ، وقد يميل الباحث نحو ترجيح رواية صاحب البيوتات على رواية القاضي عياض على قدمها ، وذلك على قاعدة « أهل مكة أدري بشعابها » ، ويقوي هذا الاحتمال الدور الذي شغله الفاسي في كل من مدينة فاس ثم القيروان وفي أصل قيام حركة المرابطين *

ونص القاضي عياض صراحة على أن الفاسي قد ولد سنة « ثلاث وستين وثلاثمائة » وقيل أيضا إنه ولد سنة ٣٦٥ أو حتى سنة

٣٦٨ (٣) وعلى هذا « عاصر الغفجومي منذ صباه الأحداث الخطيرة الغامضة في تاريخ المغرب من هجوم الصنهاجيين خلفاء العبيديين ، والعامريين خلفاء بني أمية ، وقيام زعماء البربر بالدعوة لهؤلاء تارة ولأولئك أخرى ، وفي طليعتهم زيري بن عطية المغراوي ، ويدو بن يعلى اليفرني ، وأبو البهار الصنهاجي ، ففي هذا الظرف الحرج المتقلب ولد وعاش سنواته الأولى -- وشب وترعرع -- ونال مكانة سامية في العلم والفتوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تضايق من وجوده رجال السلطة فخرج من وطنه مهاجرا كارهها للوضع القائم وتصرفات رجاله في البلاد » (٤) .

يبدو أنها كانت فرصة بالنسبة للفاسي ، وقد أرغم على مغادرة بلده أن يرحل في سبيل العلم ، فكان أن قصد قرطبة ، وبعدما أخذ عن علمائها قصد القيروان ، ومن القيروان توجه إلى المشرق فقصى فريضة الحج ثم دخل بغداد حيث لقي فيها وفي مدن العراق الأخرى قادة رجال اليقظة للقرن الخامس ، وقد تأثر كثيرا بأبي بكر الباقلاني ، فعليه درس الأصول مع علم الكلام بردوده الشديدة على حركات الغلاة ، ومثل هؤلاء في الشمال الأفريقي دولة برغواطة في سواحل المغرب الأقصى مع بقايا الاسماعيلية في إفريقية ، وكان المعز بن باديس نائب الفاطميين في إفريقية قد ملك النزعات والرغبة في الغاء الانتماء للفاطميين ، والاستقلال عنهم وإعادة الخطبة للعباسيين .

وكان الفاسي بعد ما غادر المشرق إلى المغرب استقر في مدينة القيروان ، وفيها نشط وحظي بمكانة مرموقة ومؤثرة بوهكذا شغل دورا فعالا في اقناع المعز بن باديس بالانقلاب على الفاطميين وإيقاع مذبحة بالمؤمنين بالعقيدة الاسماعيلية في إفريقية .

كان الخليفة في القاهرة المستنصر بالله وكانت دولته أضعف من أن تتمكن من اتخاذ إجراء عسكري مباشر ضد المعز بن باديس ، لكنها لم تعدم الوسيلة للانتقام منه ، وكان الانتقام في تحريض قبائل هلال وسليم بالزحف نحو إفريقية، وأحدث هذا الزحف أوسع الآثار

السياسية والاقتصادية والعمرانية على جل بلدان المغرب العربي ، وفيها ثبت طابع العروبة بشكل أبدي مطلق (٥) .

وإذا كان الفاسي قد أسهم بنصيبه في أسباب تفجر الأحداث التي شهدتها إفريقية . فإن شهرته لم تصدر عن هذا الاسهام ولا حتى عما صنفه أرواء في ميدان الفقه والحديث ، لقد صدرت عن دوره في قيام حركة المرابطين ، ففي القيروان قيل اتصل به في طريق العودة من الحج يحيى بن ابراهيم الجدالي ، وكان يحيى زعيما لقبيلة جدالة احدى كبيرات قبائل الصحراء ، ديارها واقعة على مقربة من شواطئ المحيط الأطلسي ومصب نهر السنغال .

واعجب الجدالي بالشيخ أبي عمران الفاسي ، ورأى أبو عمران فيه رجلا « محبا في الخير ، فأعجبه حاله ، فسأله عن اسمه وبلده ونسبه فأخبره بذلك ، وأعلمه بسعة بلاده وما فيها من الخلق ، فقال له . وما ينتحلون من المذاهب ؟ فقال له : إنهم قوم غلب عليهم الجهل ، وليس لهم كثير علم ، فاختره الفقيه وسأله عن واجبات دينه ، فلم يجده يعرف منها شيئا ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفا ، إلا أنه حريص على التعلم ، صحيح الذية والعقيدة واليقين ، جاهل بما يصلح دينه ، فقال له : ما يمنعك من التعلم للعلم ؟ فقال له : ياسيدي إن أهل بلادي قوم عمهم الجهل ، وليس فيهم من يقرأ القرآن ، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسمعون إليه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويدعوهم الى العمل بالكتاب والسنة ، ويعلمهم شرائع الاسلام ، ويبين لهم سنن النبي عليه السلام ، فلو بغيت الثواب من الله تعالى بتعليمهم الخير لبعثت معي الى بلادنا بعض تلاميذك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويسمعون له ويطيعوه فيكون لك في ذلك الأجر العظيم والثواب الجسيم عند الله ، أن تكون سببا لهدايتهم ، فندب الشيخ الفقيه أبو عمران تلاميذه الى ذلك فسامتعو واشفقوا من دخول الصحراء ، ولم يجبه منهم أحد ممن يرضاه الشيخ ، فلما يئس منهم قال : إني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيها

حازقا تقيا لقيني هنا ، واخذ عني علما كثيرا وعرفت ذلك منه واسمه واجاج بن زلو اللمطي ، من اهل السوس الأقصى ، وهو الآن يتعبد ويدرس العلم ، ويدعو الناس الى الخير في رباط. هناك وله تلاميذ جمعة يقرؤون عليه العلم ، اكتب له كتابا لينظر في تلاميذه من يبعثه معك ، فسر إليه» (٦) .

ونستخلص من هذه الرواية ان المبادرة بارسال عالم الى الصحراء جاءت من عند الجدالي ، وان الذي قام به الفاسي هو مجرد الاستجابة ، وهذا يعني انعدام اية خطط للدعوة في الصحراء لدى الفاسي ، وان كل ما حدث نجم عن عامل الصدفة : فريق من حجاج الصحراء التقى بواحد من كبار العلماء في القيروان ، وهكذا سارت الامور ، لكن يبدو ان القضية لم تكن ابدا بهذه البساطة ولم تسر على هذه الشاكلة .

تحدث صاحب بيوتات فاس عن اللقاء الذي قام بين الرجلين في القيروان فقال : « وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن ابراهيم اللمتوني الصنهاجي الى قتال الطغاة من اهل المغرب وجهاد اهل برغواطه من السوس » (٧). وقال المصنف نفسه في مكان اخر من كتابه تحدث به عن اسرة عبد الله بن ياسين في فاس : « وهم من بني عبد الله بن ياسين الفقيه الذي انتدب لمتونة الى قتال برغواطه من السوس » ، وبعد ايراده لبعض المعلومات عن كل من برغواطه وقبيلة لمتونة بين ان ديار لمتونة في « صحراء المغرب التي بين بلاد السودان المغربية وبلاد المغرب وذلك مسيرة شهرين طولا وعرضا وليس لهم مدينة يأوون إليها إلا مدينة غانة من بلاد السودان المغربية وأما غانة فكانوا على دين النصرانية الى سنة تسع وستين وأربعمائة ، فأسلم أهلها على يد عبد الله بن ياسين عند خروجه مع يحيى بن عمر اللمتوني إلى قتال أهل برغواطه ، وحسن إسلامهم » .

وكان السبب في دخول لمتونة المغرب انهم على دين الاسلام منذ اسلموا على يد الامام ادريس ، وكانوا يحاربون السودان ، ثم إن

يحيى وأبا بكر بن عمر خرجا الى الحج مع قومهما فمروا بمدينة القيروان يتبركون بالعلامة أبي عمران الفاسي حيث بلغهم أن أهل فاس أخرجوه من مدينة فاس لئلا يهجم عليهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغارم ولما اجتمع مع يحيى بن عمر نذبه أبو عمران الى قتال برغواطية ببلاذ السوس وقتال زناته على ما صدر منهم من الظلم ، واستنزال رؤسائهم من الولاية ، فوعده يحيى بن عمر بالنزول الى ذلك ، وطلب منه أن يوجه معه الى بلاده بعض طلبته لينظر في أمور ديانتهم وأخراج زكاتهم وأعطاهم وفيمن تصرف مع أخماس غنائمهم ، فصر ذلك أبو عمران على طلبته فامتنعوا من المسير مع يحيى بن عمر بن إبراهيم لبعده البلاد والمشقة ، وانقطاع الصحراء عن بلاد إفريقية ، ثم قال له أبو عمران : نكتب لك رسالة الى فقيه بالسوس مما يلي بلادك ، يدعى بوجاج - ممن كان قرا عليه بفاس قبل ارتحال أبي عمران عنها - فكتب له رسالة يطلب منه فيها أن يوجه معه فقيها الى بلاده ، فسار يحيى بن عمر بن إبراهيم مع قومه الى وجاج ، إلى أن وصلوا إليه فدفعوا إليه كتاب أبي عمران ، فلما قرأه رحب بهم وأكرمهم واختار لهم عبد الله بن ياسين من أصحابه « (٨) » .

الجديد في هذه الرواية أن الذي التقى بالفاسي وفد من لمتونة وليس من جدالة بقيادة يحيى بن عمر بن إبراهيم ، وحدث هذا اللقاء في القيروان ، والفاسي هو الذي نذب الوفد ليس لقتال برغواطية فحسب بل لقتال زناته وكانت آنذاك تشكل خطرا كبيرا على حكم المعز بن باديس ، وإن وجاج تتلمذ على الفاسي في مدينة فاس ، وسنرى أن يحيى بن عمر اللمتوني سيتولى زعامة المرابطين حتى وفاته حيث سيخلفه أخوه أبو بكر بن عمر .

وجاءت وفاة يحيى بن عمر سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م حيث قتل في معركة كبيرة ضد قبيلة جدالة (٩) .

والاشكالية التي تواجهنا هنا ليست مقصورة على كيفية انتقال زعامة المرابطين من جدالة الى لمتونة بل أمر آخر يتعلق بشخصية

أخرى يروى من قبل مصادر مبكرة جدا أنها التي التقت أولا بسأبي
عمران الغفجومي *

يحدثنا البكري في كتابه المسالك والممالك بقوله : « وخلف بني
لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم يجاورون البحر ليس
بينهم وبينه أحد ، وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين
وأربعمئة بدعوة الحق ، ورد المظالم ، وقطع جميع المغارم ، وهم
على السنة متمسكون بمذهب مسالك بن أنس رضي الله عنه ، وكان
الذي نهج ذلك فيهم ، ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله
ابن ياسين ، وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن إبراهيم من بني
جدالة ، وحج في بعض السنين ، ولقي في صدره عن حجة الفقيه أبا
عمران القاسي ، فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من
المذاهب ، فلم يجد عنده علما بشيء إلا أنه راه حريصا على التعلم
صحيح النية واليقين ، فقال له : ما يمنعكم من تعلم الشرع على
وجهه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال له : لا يصل إلينا
إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم ، ورغب إلى أبي
عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم
أحكام الشريعة عندهم ، فلم يجد أبو عمران فيمن رضي من يجيبه
إلى السير معه ، فقال له أبو عمران : إني قد عدمت بالقيروان
بغيتكم ، وإن بملكوس فقيها حاذقا ورعا قد لقيني وعرفت ذلك منه
يقال له وجاج بن زلو ، فمر به فربما ظفرت عنده ببغيتك ، فجعل
ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه ، فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبي
عمران ، فاختر له وجاج من أصحابه رجلا يقال له عبد الله بن
ياسين ، واسم أمه تين يزمارن من أهل جزولة من قرية تسمى
تماماناوت في طرف صحراء مدينة غانة ، فوصل به إلى موضعه ،
واجتمعوا للتعليم منه والانقياد له في سبعين رجلا فغزوا بني لمتونة
وحاصروهم في جبل لهم فهزمهم ، فلم يزل أمرهم
يقوى ----- وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم ----- وهم يسمعون له
ويطيعون إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها وكانهم وجدوا في
أحكامه بعض التناقض ، فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن

سكم مع رجلين من كبرائهم --- فعزلوه عن الرأي والمشورة ، وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وانتبهوا ما كان فيها من أثاث وخرثي ، فخرج مستخفيا من قبائل صنهاجة إلى أن أتى وجاج بن زلو فقيه ملكوس « (١٠) » .

عاش البكري في الأندلس ، وكان من الأمراء العلماء ، وهو لم يزر المغرب ، والمعلومات التي دونها في كتابه كانت مما نقل إليه ، وقد قام هو بدمج التقارير التي حصل عليها ، وعلى هذا لم تخل معلوماته من شيء من التناقض والخلل ، لكنها مع هذا هامة لا يستغنى عنها ، وتزداد فائدتها لدى الحصول على بعض المواد المعاصرة لها أو من طبقته .

ومعلومات البكري تؤكد هنا على أن الذي اتصل بالفاسي كان من قبيلة جدالة ، وقد انفرد بإيراده خبر طرد عبد الله بن ياسين وعودته إلى رباط وجاج بن زلو ، وهام جدا أتiane على ذكر الجوهر بن سكم ، فلقد حاول بعض الباحثين تجاهل وجود هذه الشخصية ، أو المطابقة بينها وبين يحيى بن إبراهيم الجدالي ، والمطابقة صعبة لعدم التقارب بين الاسمين ولأن جوهرًا وصف بالفقيه ولم يأت الحديث عنه كزعيم سياسي .

وسلف بي الذكر أن جل المصادر المرابطية قد ناله التلف ، لكن يبدو أن بعضها نجا ووصل إلى مكاتب المشاركة فنقلوا عنه ، وهكذا نجد كل من ابن الأثير والنويري والمقرئ يأتون على ذكر جوهر بن سكم ، ومن عادة ابن الأثير أن لا يذكر مصادره وكذلك المقرئ لكن النويري ذكر مصدره بكل وضوح وهو كتاب « الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان » لأبي محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن باديس ، وقد ذكر أبو محمد هذا « بسند يرفعه إلى القاضي أبي الحسن علي بن قنون ، قاضي مراکش ، أن رجلا من قبيلة جدالة من كبرائهم اسمه الجوهر أتى من الصحراء إلى بلاد المغرب طالبا للحج » فالتقى بأبي عمران الفاسي « فلما حج وانصرف قصد المسجد الذي كان فيه الفقيه ، وسمع الكلام فيما

تقتضيه ملة الاسلام من الفرائض والسنن والاحكام ، فقال
الجوهر : يا فقيه ما عندنا في الصحراء من هذا الذي تذكرونه إلا
الشهادتين في العامة ، والصلاة في بعض الخاصة ، فقال الفقيه
فاحمل معك من يعلمهم عقائد ملتهم وكمال دينهم ، فقال له
الجوهر : فابعث معي أحد الفقهاء ، وعلي حفظه وبره وإكرامه ،
وكان للفقيه ابن أخ اسمه عمر ، فقال له : اذهب مع هذا السيد إلى
الصحراء ، فعلم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الاسلام ، ولك
الثواب الجزيل من الله عز وجل ، والذكر الجميل من الناس ،
فأجابته إلى ذلك ، فلما أصبح عمر من الغد جاء إلى عمه فقال له :
أعفني من الدخول إلى الصحراء فإن أهلها جاهلية ، قد ألفوا سيرا
نشدوا عليها ، فمتى نزلوا عنها قتلوا من أمرهم بخلافها ، وكان من
طلبة الفقيه رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولي ، فرأى الفقيه
وقد عز عليه مخالفة ابن أخيه فقال : يا فقيه أرسلني معه والله
المعين ، فأرسله معه وتوجهوا إلى الصحراء ، وكان عبد الله بن
ياسين فقيها عالما ورعا ديناً شهماً قوي النفس حازماً ذا رأي وصبر
وتدبير» .

فدخل الجوهر وعبد الله بن ياسين إلى الصحراء ، فانتهوا إلى قبيلة
لمتونة ، وهي على ربوة عالية ، فلما راوها نزل الجوهر عن جملة ،
وأخذ بزمam جمل عبد الله بن ياسين تعظيماً لدين الاسلام ، فأقبلت
أعيان لمتونة وأكابرهم للقاء الجوهر والاسلام عليه . فراوه يقول
الجميل فسأله عنه فقال : « هو حامل سنة رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الاسلام » .
فرحبوا به وأنزلوه أكرم نزل .

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة في محفل وفيهم أبو بكر
ابن عمر . فقالوا : « تذكر لنا ما أشرت إليه أنه يلزمنا ؟ » فقص
عليهم عبد الله عقائد الاسلام وقواعده وبين لهم حتى فهم ذلك
أكثرهم ثم اقتضاهم الجواب ، فقالوا : أما ما ذكرته من الصلاة
والزكاة فذلك قريب وأما قولك : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ،
ومن زنا يجلد ، فأمر لاندلزمه ولا ندخل تحته اذهب إلى غيرنا .

فرحلا عنهم والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين..... قال: وكان بالصحراء قبائل..... ، كل قبيلة قد حازت أرضا تسرح فيها مواشيها ، ويحمونها بسيوفهم.....

قال : وسار الجوهر حتى انتهى بعبد الله الى قبيلة جدالة ، فخطبهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم ، فمنهم من سمع وأطاع ومنهم من أعرض وعصى ، ثم إن المخالفين لهم تحزبوا وانحازوا •

فقال عبد الله للذين قبلوا منه الاسلام : « قد وجب عليكم ان تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الاسلام ، فاستعدوا لقتالهم ، واجعلوا لكم حزبا ، وأقيموا لكم راية ، وقدموا لكم أميرا فقال له الجوهر : انت الأمير ، فقال عبد الله : لا يمكنني هذا إنما أنا حامل أمانة الشرع ، أقص عليكم نصوصه وأبين لكم طريقه ، وأعرفكم سلوكه • ولكن انت الأمير » فقال الجوهر : لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتي على الناس ولعاثوا في الصحراء ، ويكون وزر ذلك علي ، لا رأي لي في هذا • فقال عبد الله : « فهذا أبو بكر بن عمر ، رأس لمتونة وكبيرها ، وهو رجل جليل القدر ، مشكور الحال ، محمود السيرة ، مطاع في قومه ، نسير إليه ونعرض تقديما لامرة عليه ، فلاحب الرئاسة يستجيب الى ذلك بنفسه ، ولما كان الجاه مستجمع إليه طائفة من قبيلته نقوى بها على عدونا ، والله المستعان •

ذكر ولاية ابي بكر بن عمر اللمتوني

قال : فاتوا ابا بكر بن عمر فأجاب ، وعقدوا له راية وبايعوه بيعة الاسلام ، وتبعه زمرة من قومه ، وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين •

ورجعوا الى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن اسلامهم • ومن الاقوام الذين تألفت قلوبهم ، وحرصهم عبد الله على الجهاد في سبيل الله ، وسماهم المرابطين • وتألفت عليهم أحزاب من الصحراء معاندين من أهل الشر والفساد ، وجيشوا لمحاربتهم ، فلم ينجزهم الحرب ولا بادروهم بلقاء بل تطف عبد الله وأبو بكر في أمرهم ، واستمالوهم ، واستعانوا على أولئك الأشرار المفسدين بالمصلحين من قبائلهم يسبونهم قوما بعد قوم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهم تحت زرب عظيم وثيق ما يذيف على ألفي رجل من المفسدين وتركوهم فيه أياما بغير طعام وهم يحفظون الزرب من سائر جهاته ، وقد خندقوا حوله ، ثم أخرجوهم قوما بعد قوم وقتلوهم عن آخرهم •

فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء وهابهم كل من فيها ، وقويت شوكة المرابطين ، هذا وعبد الله بن ياسين يعلم الشريعة ويقرئ الكتاب والسنة ، حتى صار حوله فقهاء ، وكل من انقاد الى الحق على طريق الورع والتقوى والخشية لله والمراقبة ، فرتب له اوقاتا للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد ، فاستقام منهم خلق كثير ، وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم ، وصفت قلوبهم •

ذكر مقتل الجوهري الجدالي

قال : كان الجوهري أصح القوم عقيدة ، وأخلصهم لله ديناً ، وأكثرهم صوماً وتهجداً ، فلما استبد أبو بكر بالأمردونه ، وعبد الله ينفذ الأمور بالسنة ، فصارت الدولة لهما * وبقي الجوهري لأحكام له فداخله الحسد ، وأزله الشيطان ، فشرع في إفساد الأمر سرا ، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس ، فثبت عليه ما ذكر عنه ، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة ، وشق العصا ، وهم بمحاربة أهل الحق ، فقال الجوهري : وأنا أيضاً أحب لقاء الله عز وجل حتى أرى ما عنده * فاغتسل وصلى ركعتين ، وتقدم طائفاً ، فضربت عنقه رحمه الله تعالى *

قال : وكثرت طائفة المرابطين ، وتتبعوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهب والسبي إلا من أسلم منهم وسالم ، وبلغت الأخبار الفقيه بما جرى في الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الحرير ، فعظم ذلك عليه واشمأز منه وندم على إرساله ، وكتب له في ذلك ، فأجابه عبد الله بن ياسين : أما إنكارك علي ما فعلت وندامتك على إرسالتي ، فإنك أرسلتني إلى أمة كانت جاهلية ، يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام فيعزبان في المرعى ، فتأتني المرأة حاملاً من أخيها ولا ينكرون ذلك ، وليس دابهم إلا إغارة بعضهم على بعض وقتل بعضهم لبعض ، ولا دية لهم في الدماء ، ولا حرمة عندهم للحرير ، ولا توقى بينهم في الأموال ، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم ، فمن قبل واليته ، ومن تولى أربيته ، وما تجاوزت حكم الله ولا تعديته * والسلام « (١١) » .

إن نص ابن شداد هذا على درجة عالية من الأهمية ونقاط

التوافق بينه وبين مادة البكري كبيرة ،فهما قد اتفقا على كون شخصية الجوهر شخصية تاريخية ،وعلى أنه كان أشبه بالفقهاء الأمر الذي أكدته ابن الاثير بقوله «وكان - الجوهر - محبا للدين» (١٢) واهله، وكذلك اتفقا على حصول خلاف فيما بين الجوهر وابن ياسين وروى ابن الاثير ايضا خبر اعدام الجوهر بعدما «بقي لاحكم له تداخله الحسد ،وشرع سرا في فساد الأمر ، فعلم بذلك منه ،وعقد له مجلس وذببت عليه مائذله عنه فحكم عليه بالقتل ،لأنه نكس البيعة وشق العصا وأراد محاربة اهل الحق فقتل بعد أن صلى ركعتين» (١٣) .

ومن الواضح أن كل من ابن الاثير والنويري قد نهلا من المصدر نفسه ، وهكذا أوردنا أن الجوهر بن سكم صحب معه عبد الله بن ياسين من القيروان ، نضيف الى هذا أن التادلي حين ترجم لوجاج ابن زلو أوضح أنه لحق بالفارسي الى القيروان ، اسمعه يقول : « وجاج بن زلو اللمطي .

من اهل السوس الأقصى ، رحل الى القيروان فأخذ عن ابي عمران الفاسي ، ثم عاد الى السوس ، فبنى دارا سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه» (١٤) .

لقد طارت شهرة ابي عمران الغفجومي أثناء اقامته بالقيروان ، وعلى هذا يرجح أن الطلبة قصدوه اليها ، وأنه لأمر مرجح أن يكون كل من عبد الله بن ياسين ووجاج بن زلو التقيا بالقيروان ، وهناك تعرفا الى بعضهما في حضرة شيخهما الغفجومي ، وبناء عليه أرى أن صورة الأحداث ربما وقعت على الشكل التالي :

اصطحب الجوهر بن سكم معه عبد الله بن ياسين من القيروان الى الصحراء وبعد شيء من النجاح اختلفا ، وهكذا أرغم ابن ياسين على الالتجاء الى رباط وجاج بن زلو في السوس الأقصى في طرف الصحراء ، ومجددا مر بالقيروان ركب جديد من حجاج الصحراء فيه - أو على رأسه - يحيى بن ابراهيم الجدالي ، وأن موضوع اوضاع الصحراء أثير من جديد ، وهكذا تم الاتفاق أن يمر هذا الأمير برباط

وجاج ويصطحب معه عبد الله بن ياسين ، وهذا ماكان ، وعلى أساسه يمكن أن نفهم مسألة اعدام الجوهر بن سكم . وكان عبد الله ابن ياسين كما رأينا من أهل الصحراء ، وكان قد رحل في سبيل طلب العلم حتى أنه زار الأندلس ومكث فيها سبع سنوات (١٥) وكان أصله وتكوين شخصيته وثقافته التي حصلها تؤهله أكثر من غيره للعمل في الصحراء ومن ثم النجاح .

وهناك خلاف كبير بين المصادر حول تاريخ هذه الحوادث ، ولابد أنها حدثت قبل وفاة أبي عمران الفاسي في سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م وأميل هنا الى الأخذ برواية صاحب روض القرطاس حيث ذكر أن يحيى بن ابراهيم الجدالي توجه الى الحج سنة سبع وعشرين وأربعمائة (١٦) وقد يكون لقيه في هذه السنة أو في السنة التالية .

في الصحراء حقق ابن ياسين برفقة الأمير الجدالي بعض النجاحات غير أن رجالات جدالة مالبتوا أن اخذوا بالاعراض عنه ، وهنا فكر بالرحيل عنهم « الى بلاد السودان » (١٧) ، والسؤال الذي لا بد من طرحه هنا لماذا الى بلاد السودان ، وليس مجددا الى بلاد رباط واجاج بن زلو؟ لعل السبب هو لجوئه قبل هذا الى واجاج ثم تفكيره بالعودة الى بلده أو المناطق المجاورة لها ، لكن لماذا اعرض عنه الجداليون ، هل فقط أنهم لما « راوه قد شدد عليهم في ترك ما هم عليه من المنكرات تبرأوا منه وهجروه ونافروه ، وثقل ذلك عليهم » (١٨) ؟

القضية أكبر من هذا ، كان مشروع عبد الله بن ياسين مشروعا سياسيا ، وقف في سبيله في المرحلة الأولى الفقيه جوهر بن سكم ، والآن بمعاونة الأمير الجدالي ، أو بالحري أمير جدالة تخلص من الجوهر باعدامه ، ولابد أن ردت الفعل القاسية جدا على ذلك هي التي أرغمت ابن ياسين على قرار النزوح ، لابل أكثر من هذا أفقدت يحيى بن ابراهيم سلطانه ومكانته ، فقد كان يحيى بن ابراهيم « على رئاسة صنهاجة وحروبهم مع أعدائهم » (١٩) .

وصنهاجة كما سنرى كان اسم « الجد الجامع » لقبائل الصحراء

خاصة جدالة وملتونة ، ولا يفقد الأمير سلطانه الا بسبب كبير جدا ، ومن هنا لم يسمح يحيى بن ابراهيم لابن ياسين بالذهاب وتمسك به ووضع خطة يستطيع بوساطتها استعادة قواه ومن ثم الانتقام مجددا واسترداد سلطانه فقال لابن ياسين : « إن هاهنا في بلادنا جزيرة في البحر اذا اندسر البحر دخلنا اليها على أقدامنا ، واذا أمتلا بخلناها في الزوارق ، وفيها الحلال المحض الذي لاشك فيه من اشجار البرية وصيد البر ... فدخلناها وبخل معهما سبعة نفر من جدالة ، فابتدئنا بها رابطة ، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة اشهر ، فتسامع مع الناس بأخبارهم ... فكثرو الوارد عليهم ... فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو الف رجل من اشراف صنهاجة فسماهم المرابطين للزومهم رابطته » (٢٠) .

ومعروف أن تجربة المرابطة في الثغور تجربة مبكرة قامت منذ العصور الأموي وتركزت أولا على شواطئ البحر المتوسط الشامية ، ومن أشهر النماذج الأولى لها رباط بيروت الذي عاش فيه الامام الأوزاعي ، وفي حياة الأوزاعي وعدد من أئمة الزهد في الاسلام مثل عبد الله بن المبارك وعلاقتهم مع السلطات بعض التعليل لنمو حركة المرابطة وتطويرها وتنظيمها حيث غدا الرباط مؤسسة عسكرية فقهية ، له مقوماته وأدواره في جميع المجالات حتى الاقتصادية منها ، فالفقهاء والصلحاء فروا من التعامل مع السلطان وأخذوا بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا وربطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٢١) .

ومن سواحل الشام انتقلت تجربة الرباط الى شواطئ افريقية وهناك تطورت تطورا عجيبا وشغلت أوسع الأدوار (٢٢) وظلت كذلك حتى قيام الخلافة الفاطمية والقضاء على حكم الأغابة وتأسيس مدينة المهدية ، فقد سدد هذا ضربة موجعة للرباط المتوسطي وبالتالي أدى الى انتقال التجربة الى سواحل الأطلسي والى داخل الأراضي المغربية ، ومنذ هذا التاريخ شغل الرباط أهم الأدوار في اقامة الدول والحكومات واسقاطها ، فقد أقام رباط عبد الله بن ياسين دولة الرباط ، وكان لرباط تينملل الدور الحاسم في اسقاط

دولة الرباط واقامة الدولة الموحدية ، وهكذا من رباط الى اخر ومن دولة الى اخرى حتى رباط درعة سجلماسة واقامة دولة الاشراف العلويين الحاكمة الآن في المغرب.

وتباينت الآراء والروايات حول تحديد موقع رباط بن ياسين ، وأقرب ما روي الى القبول ما ذكره ابن خلدون ، حيث يستخلص أن ذلك كان قرب مصب نهر السنغال (٢٣) .

واستبعد بناء رباط محصن عسكريا ، فعند الذين جاءوا الى الموقع أولا كلن ضئيلا وكانوا جميعا من بداء الصحراء بلا تجربة أو خبرة بأعمال البناء ، ولعل الامم لم يتعد نوعا من انواع المعسكرات أو المذيمات المؤقتة فيها خضع المتحققون لبعض التدريبات خاصة في المجالات التثقيفية الدينية ، طبعا حسب مذهب الامام مالك ، ولعل دروس الوعظ كانت بالبربرية مع شيء من العربية . وخلال عدة أشهر اجتمع لابن ياسين حوالي الالف وهنا شعر مجددا بالقوة والقدرة على التحرك ، انما لم يلجأ هذه المرة الى استخدام السلاح مباشرة ، فقام في أصحابه « وقال لهم : يامعشر المرابطين انكم جمع كثير ، وانتم جم كبير ، وانتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد اصلحكم اله تعالى وهداكم الى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمرؤا بالمعروف ، وتنهؤا عن المنكر ، وتجاهدؤا في سبيل الله حق جهاده ، فقالوا : أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ، ولو امرتنا بقتال أبائنا لفعلنا ، فقال لهم : اخرجؤا على بركة الله ، وانذروا قومكم ، وخوفؤهم عقاب الله ، وأبلغؤهم حجتة ، فإن تابؤا ورجعؤا الى الحق واقلعؤا عما هم عليه فخلؤا سبيلهم ، وإن أبؤا من ذلك وتمادؤا في غيهم ولجؤا في طغيانهم استعنؤا بالله تعالى عليهم ، وجاهدؤناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فسار كل رجل منهم الى قومه وعشيرته ، فوعظهم وانذرهم ودعاهم الى الاقلاع عما هم بسبيله ، فلم يكن منهم من يقبل يرجع ، فخرج اليهم عبد الله بن ياسين ، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم ،

وقرا عليهم حجة الله ودعاهم الى التوبة ، وخوفهم عقاب الله ، فأقام يحذرهم سبعة ايام ، وهم في كل ذلك لايلتفتون الى قوله ولايزدادون الا فسادا ، فلما يدس منهم قال لأصحابه : قد أبلغنا الحجة وأنزنا ، وقد وجب علينا جهادهم فاغزوهم على بركة الله « (٢٤) .

وبلغ الآن تعداد أتباع ابن ياسين ثلاثة الاف مقاتل فغزا بهم أولا قبيلة جدالة ، فهزمها وأوقع بين صفوفها اصابات كبيرة جدا ، ثم التفت الى قبيلة لتونة فأذعنت له وكذلك فعل بقبيلة مسوفة وغيرها من قبائل الصحراء ، وتضاعف عدد أتباع ابن ياسين وملك الأموال ، واتخذ بيت مال « أخذ يركب منه الجيوش ويشترى السلاح ، ويغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء واسنولى على قبائلها « (٢٥) .

وارسل عبد الله بن ياسين « بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار والأخماس الى طلبة بلاد المصامدة وقضائتها « (٢٦) وفي عمله هذا مؤشر على تطلعاته المستقبلية في التوجه نحو المغرب الأقصى ، فقد حال بينه في الصحراء وأراضي المغرب الأقصى جبال الأطلس الكبير (درن) حيث توطنت خلفه قبائل مصموده ، وكان شراء رضاء مصموده أمرا استراتيجيا ، وفي مستقبل الأيام أحسن المهدي بن تومرت استغلال عامل الجغرافيا هذا مع انعكاساته في سبيل اسقاط بولة المرابطين .

ويقتضي هذا منا وقفة نتأمل فيها أوضاع بلاد الصحراء ، مسرح العمليات التي أتينا على ذكرها ، ولنتعرف على الأوضاع القبلية هناك والاجتماعية .

بلاد الصحراء التي شهدت حركة المرابطين هي اليوم اقليم مقفر ، قليل السكان ، وذلك بعدما قضى الاستعمار على العمران الموروث الذي كان فيه ، وهذا الاقليم موزع اليوم بين المملكة المغربية وموريتانيا ومالي وغانة مع معظم النيجر ، وقد عاش في هذا الاقليم مجموعة من القبائل ، ووجدت فيه بعض المدن والواحات ومراكز العمران ومحطات القوافل (٢٧) .

وانتمت قبائل الصحراء الى جد قبلي كبير عرف باسم صنهاجة ، واعتقدت صنهاجة انها من اصل عربي من قبائل حمير اليمن ، وحتى يومنا هذا مايزال المنتمون اليها يستخدمون لغة خاصة بهم اسمها الدسانية ، يرون انها لغة حمير لما قبل الاسلام ، وأطلق على قبائل صنهاجة اسم « قبائل الملتمين » لأن من عادة كل واحد من الرجال وضع لثام على وجهه لا يرفعه مطلقا ، ومع أن عادة اللثام نشأت - كما هو مرجح - عن طبيعة الحياة في الصحراء ، غير أن الصنهاجيين تمسكوا بها تقليدا وأعطوها مسحة تقديس ، وتصدر قبائل صنهاجة : لتونة وجدالة ومسوفة ، ومسراته ، ومداسة وبنو وارث (٢٨) .

وتحدث الشريف الإدريسي عن قبائل لتونة بقوله : « وهم أصحاب إبل ونجب عتاق رحاله لا يقيمون بمكان واحد ، ولباس الرجال منهم والذساء أكسية الصوف ، ويربطون على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازي ، وعيشهم من البان الابل ولحومها مقددة مطحونة وربما جلبت اليهم الحنطة والزبيب ، لكن الزبيب أكثر ، لأنهم كثيرا ما ينقعون الزبيب في الماء بعد الدق ويشربون صفوه نقيعا حلوا : وفي بلادهم العسل كثير ، وجل طعامهم وأحفله الطعام المسمى بالبربرية أسلوا ، وهو أنهم يأخذون الحنطة فيقلونها قليلا معتدلا ، ثم يدقونها حتى تعود جريشا ، ثم يمزجون العسل ، بمثله سمننا ويعجنون به تلك الحنطة على النار ، ويضعونه في مزاول لهم ، فيأتي طعاما شهيا وذلك أن الانسان منهم اذا اخذ من هذا الطعام ملء كفه وأكله وشرب عليه اللبن ، ثم مشى بقية يومه لم يشسته طعاما الى الليل ، وليس لهم مدينة يأوون اليها الا مدينة نول لمطة ... وبهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لا شيء ابدع منها ولا أصلب منها ظهرا ، ولا أحسن منها صنعا ، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة حملها : وبهذه المدينة قوم يصنعون السروج واللجم والأقتاب المعدة لخدمة الابل ، وتباع بها الأكيسة (٢٩) على هذا كان بداءة لتونة بغييين عن أسباب المدينة الى حد أنهم لم يعرفوا صناعة الخبز ، وكانوا جمالة ، لم يبرعوا في استخدام الخيول ، والصناعات التي

وجبت في مدينتهم الرئيسية قد ارتبطت بتقييم الخدمات الأساسية البسيطة للبداة

وأوفى من وصف الادريسي ما أودعه البكري في كتابة المسالك والممالك حيث ذكر أن « لمتونة ظواغن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام ، ويصيفون في موضع يسمى امطلوس وآخر يسمى تاليوين ، وهم الى بلاد السودان أقرب ... وليس يعرفون حراثا ولازرعا ولاخبزا ، انما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ، ينفذ عمر أحدهم ومارأى خبزا ولاأكله الا أن يمر بهم التجار من بلاد الاسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق ، وهم على السنة مجاهدون للسودان ... وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة ، وهم يجاورون البحر ، ليس بينهم وبينه أحد ... ولهم - لمتونة - في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام ، ولايحفظ لهم فرار من زحف ، وهم يقاتلون على الخيل والنجب وأكثر قتالهم رجالة صفوفًا بأيدي الصف الأول القني الطوال للمداعسة والطعان ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرعها فلا يكاد يخطيء ، ولايشوى ، ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبين ، وإن أمالها الى الأرض جالسوا جميعا ، فكانوا اثبت من الهضاب ومن فر أمامهم لم يتبعوه » (٣٠) .

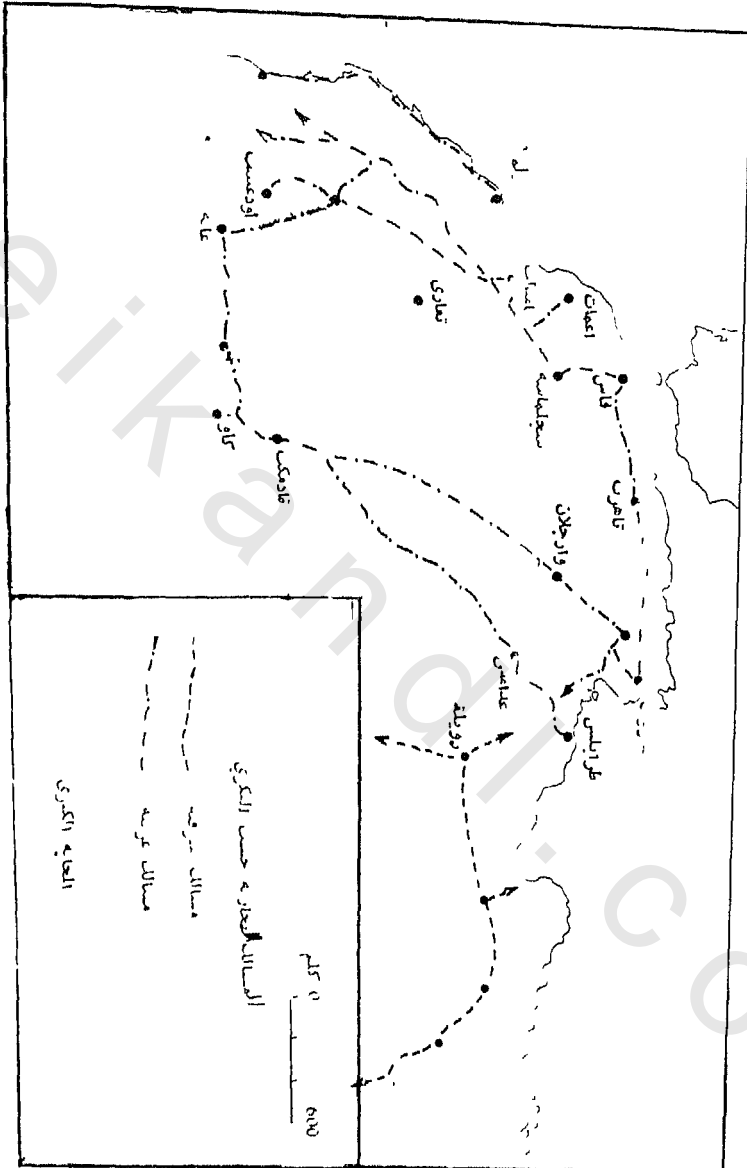
واجمعت المصادر التي تحدثت عن الجانب العسكري لدى قبائل الملائمين على الحديث عن الدرق اللمطية ، ووصف أبو عبد الله محمد الزهري هذه الدرق في كتابة الجغرافية بقوله : « وهذه الدرق من أعجب ما يكون ، وذلك أنه اذا ضرب فيها برمح أو سيف أو سهم وتبخش منها موضع بقيت بعد ذلك يسيرا ، فتفتش فلا يوجد فيه أثر الا رجع صحيحا كما كان وهذه الدرق تهدى لملوك المغرب والاندلس .

واللمط حيوان على قدر العجل أو اقل منه ، طويل العنق ، رأسه كراس الاشكر ، له أننان كأنني المعز ، في رأسه قرون طوال سود أو

مزوقة الخلقة خارجة من يافوخه راجعة الى خلفه ، تبلغ الى كفله ، ولا يوجد الا في هذا الصقع ، ومن جلده تصنع الدرق اللمطية ، وانما سميت بهذا الاسم لأنها نسبت اليه « (٣١) » .

ووصل الاسلام الى الصحراء منذ أيام الفتوحات ، ومع الأيام ازداد تسربه وانتشاره وعمق الأخذ به ، وكأن لتأسيس النواة الاولى لمدينة فاس ، ثم قيام دولة الادارسة واسع الآثار على تعاظم انتشار الاسلام ، ومن الملاحظ في تتبع تاريخ انتشار الاسلام والثقافة العربية في بلدان افريقيا خاصة الشمال الافريقي أن القيروان بعد تأسيسها قامت بالدور القيادي بالنسبة للدين الاسلامي والثقافة العربية ، انما مع سعة الانتشار قامت مدينة فاس ، بعدما تأسس فيها جامع القرويين بدور الوارث الكبير لنشاط القيروان ، وبعد تأسيس مراكش شاركت هذه فاس في حمل أعباء العمل الثقافي والديني ، ثم كان أن قامت شنقيط ايضا بالمشراكة بشكل قيادي فعال ، لكن دور شنقيط عطله الاستعمار الأوربي .

ومنذ ما قبل قيام الخلافة الفاطمية وجد على أطراف الصحراء وفي قلبها عدة مراكز حضارية ، كان أهمها سجلماسة ، فلقد شابهت هذه المدينة بنفوذها التجاري وحتى السياسي على سكان الصحراء مكة ما قبل الاسلام بالنسبة لشبه جزيرة العرب (٣٢) ومع سجلماسة والى الجنوب منها عند أطراف الصحراء مع السودان (افريقيا السوداء) قامت مكة أخرى هي أودغشت التي ارتبط ازدهارها « بازدهار سجلماسة ، فقد كانت تمثل محط رجال قوافل التجارة الكبرى بين سجلماسة باعتبارها آخر مدينة مغربية في اتجاه الجنوب وبلاد غانة ، هدف القوافل التجارية لتوريد الذهب والرقيق ، ولكنها لم تكن محط رجال القوافل لمجرد الاستراحة ، ثم مواصلة السير ، فذلك امر لا يكفي لخلق حركة تجارية دائبة وازدهار عمراني ، بل كان سوقها نقطة لقاء يغير فيها تجار قوافل الشمال بضائعهم المستوردة الى أودغشت من بلاد غانة ولاسيما الذهب « (٣٣) ومع الذهب الملح ، وربما ايضا الرقيق .



وعدت مدينة اودغشت مدينة لمتونية ، وقد شددت اودغشت مع تجارة الذهب قبيلة لمتونة نحو السودان ، وهكذا ارتبط التاريخ المبكر لهذه القبيلة بالصحراء والسودان ، وظل مرتبطا حتى بعد قيام دولة المرابطين وتأسيس مدينة مراکش .

وسكن الملائمون داخل المدينة في بيوت بسيطة من الحجارة والطين اوداخل اكواخ من الخوص والشجر أو في خيم من الشعر والوبر ، وكان اثاث البيوت مثله مثل البسة الناس من الصوف ، وكان للمرأة بين الملائمين مكانة سامية ، وعدت أحيانا مساوية للرجل ، اقتنت الثروات وتمتعت بنفوذ كبير ، ولم يباشر الذمومة الأعمال المنزلية ، حيث قام بها العبيد ، وسيمر بنا خبر زينب النفاوية زوجة يوسف ابن تاشفين ومكانتها لديه ، وصدوره عن رأيها ومشورتها وانقسام مجتمع كل قبيلة أو عشيرة الى فئتين اجتماعيتين امتازتا عن بعضهما : السادة والأمجاد أو الرقيق ، ورست مقاليد الأمور والرساميل التجارية وقيادة الجيوش بأيدي السادة وكان الأمجاد لايبيعون ولايعتقون ولكن يورثون ، ويقومون بمختلف الوظائف من رعي وأعمال يدوية ، ولهم الحق بالكسب وامتلاك الثروات شريطة دفعهم لنصيب محدود منها لساداتهم .

وكان الملائمون بشكل عام طوال القامة ، فيهم رشاقة ، لهم وجوه سمراء ، لايمشي الرجل منهم بدون سلاح وقد يحمل رمحين قصيرين لكل منهما سنان طويل مشحوذ من فولاذ جيد (٣٤) .

وقد قرأنا في صفحات تقدمت أخبار انطلاق عبد الله بن ياسين ومعه الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالي ، واخضاعهما لقبيلة جدالة ثم قبائل لمتونة داخل الصحراء ، وطارت شهرة حركة المرابطين ونجاحات رجالها وعمت الأخبار « في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة ، وبلاد المصامدة وسائر بلاد المغرب ، وأنه قام رجل بجدالة يدعو الى الله والى طريق مستقيم ، ويحكم بما أنزل الله ، وأنه متواضع زاهد في الدنيا ، واشتهر ذلك ببلاد السودان» (٣٥) وفي هذه الأثناء توفي يحيى بن ابراهيم الجدالي ، ويرجح أن ذلك كان سنة

٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م وهنا عقد عبد الله بن ياسين مؤتمرا لمقدمي المرابطين وأقدم على اختيار الأمير اللمتوني يحيى بن عمر اللمتوني ، ودل عبد الله بن ياسين بقراره هذا على أنه ملك بصيرة تاريخية ، ولعل علاقاته المتقدمة ، مع قبيلة جدالة ، وقدرات قبيلة لمتونة ، ولأنها كانت « أكثر قبائل صنهاجة طاعة لله تعالى وديننا وصلاحا ، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويشرفهم ويقدمهم على قبائل صنهاجة ، وذلك لما أراد الله من ظهور أمرهم وتملكهم على المغرب والأندلس » (٣٦) .

« وكان يحيى بن عمر أشد الناس انقيادا لعبد الله بن ياسين وامتنالا لما يأمره به ، ولقد حدث جماعة أن عبد الله قال له في بعض تلك الحروب : أيها الأمير إن عليك حقا أدبا ، فقال له يحيى : ما الذي أوجبه علي ؟ قال عبد الله : اني لا أخبرك به حتى أؤدبك وأخذ حق الله منك ، فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته ، فضربه الفقيه ضربات بالأسوط ، ثم قال له : الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكريه وهلاكه هلاكهم » (٤) .

وعلى هذا كان « عبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة ، لأنه هو الذي يأمر وينهي ويعطي ويأخذ » (٣٨) .

ويروى أن عبد الله بن ياسين تلقى مع الأمير الجديد رسائل من بعض مناطق الصحراء ، وخاصة من أهالي سجلماسة ، تشكو سوء الأوضاع وظلم الحكام ، وبالتالي تدعو المرابطين ليتولوا أعمال الانقاذ ، ويبدو أن هذه الدعوات لاقت هوى في نفوس قادة المرابطين لكن يستخلص من مواد البكري أن مدينة أودغشت خضعت في هذه الآونة لملك غانة السوداني ، ورأينا من قبل أن هذه المدينة عدت مدينة لمتونية ، ولعل لمتونة فقدت هذه المدينة في مجرى أحداث الصحراء ودخول لمتونة تحت ظل عبد الله بن ياسين ، لهذا أثرت القوات المرابطية التوجه أولا نحو أودغشت لاستردادها ، ويرجح أن هذا كان سنة ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م وتم الاستيلاء على أودغشت عنوة ، ونهبت ، واستباح « المرابطون حريمها ، وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فينا » ، واثّر هذا بدأت تفقد أهميتها الاقتصادية ليس فقط

نتيجة لما لحقها من دمار وانما بسبب التحول الذي ألم بطرق التجارة ومسالكتها لاسيما بعد تأسيس مدينة مراكش وتأسيس دولة المرابطين والاستيلاء على الأندلس (٣٩) .

ولم تحسم معركة أودغشت مسألة الصراع مع السودان ، أو ما عرف آنذاك باسم غانة ، وظلت هذه الجبهة مشتعلة تستحوذ على قسط وافر من الامكانيات العسكرية لقبيلة لتونة ، وسيكون لهذا الجانب مع جانب استيلاء المرابطين على المغرب الأقصى وأجزاء من المغرب ثم الأندلس أبعاد الآثار على تحديد مصير الدولة المرابطية ، ولا أقصد هنا الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية العامة ، بل أعني الطاقة البشرية ، فقد غدت طاقة لتونة أدنى من أن تفي بمتطلبات الصحراء وجبهتها والدولة المرابطية واتساعها ، ولنتذكر في هذا المقام ما قدمه ابن خلدون في مقدمته حول عصبية الدولة . والذي يعيننا الآن هو أن عبد الله بن ياسين بعدما فرغ من شؤون أودغشت بات بإمكانه الالتفات نحو سجلماسة .

إن بقايا أودغشت موجودة في موريتانيا وبقايا سجلماسة في المملكة المغربية في إقليم تافلالت أو الراشدية ، وكانت سجلماسة تحكم من قبل قبيلة زناتة واسم حاكمها مسعود بن وانودين المغراوي ، ولم يكن حكمه يحظى بالقبول من قبل علماء سجلماسة والصلحاء فيها ، وهكذا اجتمع سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م « فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم فكتبوا الى الفقيه عبد الله بن ياسين والى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتابا يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليظهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما هم فيه بها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من النذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي .

فلما وصل الكتاب لعبد الله بن ياسين ، جمع رؤساء المرابطين ، وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر ، فقالوا له : أيها الشيخ الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فسر بنا على بركة الله تعالى ،

فأمرهم بالجهاز ، وخرج بهم في الموفى عشرين لصفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة (٢١ - أيار ١٠٥٥) في جيش عظيم من المرابطين ، فسار حتى وصل بلاد درعة ، فوجد عامل أمير سجلماسة فأخرجه عنها ووجد بها خمسين ألف ناقة كانت بها في مراعيها لصاحب سجلماسة مسعود المغراوي ، فعلم الأمير مسعود بذلك ، فجمع جيوشه وخرج نحوهم ، فالتقى الجمعان ، فكانت بينهم حروب عظيمة منح الله تعالى المرابطين فيها النصر على مغراوة ، فقتل مسعود بن وانودين المغراوي وأكثر جيوشه وفر الباقون ، فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الابل التي أخذ في درعة ، فأخرج منها خمس جميعه ففرقه في فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائها ، وقسم الباقي على المرابطين . وارتحل من فوره حتى دخل مدينة سجلماسة فقتل من وجد بها من مغراوة ، وأقام بها حتى هدنها وأصلح أحوالها ، وغير ما وجد بها من المذكرات ، وقطع المزامير ، وأحرق الديار التي كانت تباع بها الخمر ، وأزال المكوس ، وأسقط المغارم المخزنية ، وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه ، وقدم عليها عاملا من لمتونة وانصرف الى الصحراء» (٤٠) .

وبعدما انتهى عبد الله بن ياسين من مهامه في سجلماسة غادرها عائدا الى الصحراء ، غير أن أهل سجلماسة مالبت أن وجدوا أن حكامهم من بداء لمتونة أشد قسوة وخشونة ممن تقدمهم ، فشعروا بالخيبة والندم ، وعقدوا العزم على استعادة استقلالهم ، وشجعهم على هذا أن قبيلة زناتة أعانت جمع قواها ، وأن عبد الله بن ياسين يعاني من مشاكل كثيرة مع قبيلة جدالة ومع اللامتونيين ، وهكذا ثارت سجلماسة وتم الفتك بالحامية المرابطية فيها .

ولما عرف ابن ياسين بما جرى في سجلماسة قرر استعادتها بأي ثمن ، فندب « المرابطين الى غزو زناتة ثانية فأبوا عليه ، وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا الى ساحل البحر ، فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة ، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ ، في طوله ستة أيام وفي عرضة مسافة يوم ، وهناك حصن أزقي حوله نحو

عشرين الف نخلة ، كان بناه يانوا بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر ، فصار يحيى في جبل لمتونة ، وذهب عبد الله بن ياسين الى سجلماسة في مائتي رجل من قبائل صنهاجة ، ونزل موضعا يقال له تامدولت ، حصن فيه مياه ونخل كثير» (٤١) .

ومن موقعه الحصين استطاع ابن ياسين أن يجمع جيشا من قبائل الملتمين سرطه وترغة كما أنه استدعى اليه الأمير أبو بكر بن عمر ، وهو أخو يحيى بن عمر ، وكان معسكرا في درعة ، وبهذا امتلك مايكفي من القوات لاسترداد مدينة سجلماسة ، وهكذا توطد سلطان المرابطين في اقليم الواحات ، وعين ابن ياسين يوسف بن تاشفين واليا على سجلماسة ، « ولما ولي يوسف بن تاشفين أحسن الى الرعية واقتصر منهم على الزكاة » (٤٢) .

وفي الوقت الذي كان ابن ياسين فيه في سجلماسة كانت قبيلة جدالة قد جمعت قواها وأرادت اغتنام الفرصة فعاتت نحو « يحيى بن عمر فحاصروه في الجبل وذلك سنة ثمان وأربعين وهم في نحو ثلاثين الفا » وقاوم يحيى بن عمر جدالة ، غير أنه عبثا فعل حيث قتل « وقتل معه بشر كثير » (٤٣) .

وامام الوضع الجديد عين عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر خلفا لأخيه ، وسعى للانتقام من جدالة ثم للخروج من الصحراء لقتال برغوطه ، تنفيذًا لوصية أبي عمران الغفجومي ، ويرجع أن سجلماسة باتت الآن حاضرة مؤقتة للمرابطين أو لنقل لدولة المرابطين الناشئة فقد وصلنا ديناران ضربا في سجلماسة ويحملان اسم الأمير أبي بكر بن عمر ، وتاريخ الأول منهما سنة ٤٥٠ هـ والثاني ٤٥٦ هـ ، ونعرف مما جاء على الدينارين أن الدولة الجديدة التي قامت الآن في سجلماسة أعلنت الولاء للخلافة العباسية في بغداد (٤٤) .

وازداد تعداد القوات المرابطية ، ووجدت القيادة الموزعة مسابين أبي بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين من الضرورة بمكان الخروج من الصحراء الى الأراضي المغربية ، وهكذا تورطت الحركة المرابطية في

حماة مداخلته جميع الثورات والحركات الاصلاحية وسواها في الاسلام بتوجيه امكاناتها نحو داخل ارض الاسلام ، وبسبب سلطانها على المسلمين ، وقد يرى بعض الباحثين نوعا من الاستثناء في تاريخ المرابطين ، حيث سنجد فيما سنزويه بعد قليل انشطار القوات المرابطية ، وعودة قسم كبير منها الى الصحراء بقيادة أبي بكر بن عمر ، لكن أبابكر عاد لغايات دفاعية عاد للدفاع عن الصحراء ضد السودان ، وليس للتوسع في بلادهم ، ذلك أنه اتخذ من الصحراء مقرا له ، ومن سجل ماسة عاصمة ، وقد تكرر هذا بعد بناء مدينة مراكش ، وفي الصحراء مات أبو بكر بن عمر فخلفه في سلجاسة ابنة ابراهيم ، فقد وصلنا من ننانير ابراهيم بينار ضرب في سلجاسة سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م (٤٥) .

وكانت مسوغات الخروج من الصحراء الى المغرب القتال ضد زناته وضد برغواطة وبعض القوى المتطرفة الأخرى ، وازالة الفوضى والظلم ، والسيطرة على المناطق الساحلية لمزيد من التحكم بالتجارة الخارجية وعجل باتخاذ قرار الخروج تعرض الصحراء للجفاف ، روى النويري عن ابن شداد قوله : « وفي سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلاد الملائمين ، وماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة ، فأمر عبد الله ضعفاءهم بالخروج الى السوس الأقصى وأخذ الزكاة ، فخرجوا وقالوا : نحن مرابطون خرجنا اليكم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم ، فجمعوا لهم شيئا له بال ، فرجعوا به الى الصحراء ثم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشفطها وكثرتهم ، فطلبوا اظهار كلمة الحق ، فخرجوا الى السوس الأقصى ، فتسامع بهم أهل البلاد فاجتمعوا وجيشوا وخرجوا لقتالهم » (٤٦) .

لقد اصطدم المرابطون أولا ببعض قوات مصمودة ، لكن هدفهم كان اقليم تامسنا المغربي حيث وجدت دولة برغواطة ، وبرغواطة بالأصل من قبائل المصامدة ، وقامت دولة برغواطة على أساس ديني مزج بين بقايا الوثنية لما قبل الاسلام لدى البربر وأفكار الشيعة والخوارج والرافضة والمعتزلة ، وقيل أسس الدولة صالح بن طريف وكان طريف من موالى موسى بن نصير بعثه كما رأينا في بعثة

استطلاعية الى الأندلس قبل فتحها ،وقامت هذه الدولة على سواحل المغرب الأقصى وامتدت فيما بين نهري سلا (قرب الرباط الحالية) الى نهر أم الربيع ، وعاشت منذ أواخر القرن الأول للهجرة حتى بعد تاريخ غزوها من قبل عبد الله بن ياسين ممارسة سياسة رعب في البر والبحر ، وقد كان القضاء عليها مطلباً دينياً وسياسياً ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين .

ومهما يكن من أمر سار الأمير أبو بكر بن عمر على رأس جيوش المرابطين وبرفخته فقيهه عبد الله بن ياسين وخاضت الجيوش المرابطية قتالاً قاسياً ضد برغواطية استمرت حتى عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وفي أثناء القتال أصيب عبد الله بن ياسين باصابات مميتة توفي أثرها وقد دفن بكر يفلة ، ومازال قبره معروفاً في المملكة المغربية أقيم عليه ضريح كبير يزوره المغاربة .

وبعد وفاة عبد الله بن ياسين تابع المرابطون القتال حتى حققوا النصر ، ولذلك توجه أبو بكر عائداً مع جيوشه نحو أطراف الصحراء فعسكر في مدينة أغمات ، وكانت أكبر حواضر قبائل مصمودة ، وفي أغمات تزوج أبو بكر من زينب النفراوية ، وكانت امرأة جميلة ثرية ، أرملة لواحد من كبار التجار أو الأعيان ، لكن أبا بكر لم يقيم طويلاً في أغمات حيث ورثت عليه الأخبار من داخل الصحراء باختلال أمورها ، فاتخذ قراره بالعودة الى الصحراء وصحب معه شطراً من جيوشه ، وقبل سفره عين مكانه يوسف بن تاشفين ، وطلق زوجته فتزوجها يوسف ذلك أنها كانت « امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور ، حتى كان يقال لها الساحرة » .

كان أبو بكر « رجلاً صالحاً كثير الورع ، فلم يستحل قتال المسلمين وسفك دمائهم » لذلك أثر العودة الى الصحراء « ليصلح أحوالها ويقيم بها ليجاهد الكفار من السودان ، فلما عزم على الخروج الى الصحراء طلق زوجته زينب وقال لها عند فراقه لها : يا زينب انك ذات حسن وجمال فائق ، وانت لطيفة لاطاقة لك على بلاد الصحراء ، واني مطلقك فإن تمت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين ،

فهو خليفتي على بلاد المغرب » واخذ أبو بكر الطريق الى سجلماسة ويبدو أن الأمور لم تستقم له فيها لسنوات طوال فقد قال البكري « وأمير المرابطين الى اليوم وذلك سنة ستين وأربعمائة أبو بكر بن عمر ، وأمرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم بالصحراء » (٤٧) .

إن مسألة تأسيس مدينة مراكش ، ودور يوسف بن تاشفين - الذي لم يذكره البكري - في اقامة الدولة المرابطية في المغربين الأقصى والأوسط ، ثم مد الحكم المرابطي الى الأندلس هو ما سنتناوله في الفصول التالية ، ولعله من المفيد أن نختم هذا الفصل بالتعرف الى نهاية أبي بكر بن عمر ، حيث قيل إنه مكث في الصحراء حتى استقرت الأمور فيها ، وهنا عرف بالنجاحات التي حققها يوسف بن تاشفين في المغرب ، فقدم الى مراكش وفي نفسه عزل يوسف ، لكن ابن تاشفين احتاط للأمر واخذ بنصيحة زوجته زينب ، مما أدى الى نجاحه ، فما كان من أبي بكر بعدما تسلم هدايا كثيرة من يوسف ، وبعدها عرف أنه لن يتخلى عن عمله ما كان منه الا أن سلم للأمر الواقع فالتقى بيوسف وخاطبه قائلا : « يا يوسف اني وليتك هذا الأمر ، واني مسؤول عنه ، فأتق الله في المسلمين وأعتقني واعتق نفسك ، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئا فانك مسؤول عنهم ، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك ، وهو خليفتي عليك وعليهم ، ثم ودعه وانصرف الى الصحراء » (٤٨) .

والسؤال الذي يواجهنا الآن متى حدث هذا ؟ من الصعب الحصول على تاريخ متفق عليه ، فقد ذكر ابن عذاري صاحب الحل المؤشية أن ذلك كان سنة ٤٦٥ هـ ، وأن أبا بكر عاش بعد عودته الى الصحراء ثلاث سنوات حيث قتل أثناء حروبه ضد السودان ، ولاشك أن أبا بكر عاد من الصحراء بعد سنة ٤٦٠ هـ ، لكن ليس سنة ٤٦٥ هـ ذلك أن زينب النفزاوية توفيت في سنة أربع وستين وأربعمائة » (٤٩) ولم يذكر ابن خلدون سنة عودة أبي بكر لكنه متفق مع رواية روض القرطاس في أنه توفي سنة ٤٨٠ هـ ، وكذلك فعل لسان الدين بن الخطيب (٥٠) .

وقد نفترض أن زينب الذفزاوية توفيت بعد سنة ٤٦٤ هـ لكن هنالك مشكلة أخرى تتمثل في وصول دينار ذهبي ضرب في سجلماسة ٤٦٢ هـ جاء عليه فقط اسم الأمير ابراهيم بن أبي بكر (٥١) ومقدر أن في ذكر ابراهيم لاسمه وحده دون إضافة اسم أبيه ، أن الأب كان في سنة ٤٦٢ هـ في عداد الأموات ، فهل كان فعلا ؟ إن هذا ماأكده كل من ابن الأثير والنويري نقلًا عن ابن شداد (٥٢) .